مصطلح الاحتجاج للقراءات القرآنية وتوجيهها

أ.محمّد عميّر
المركز الجامعي النعامة (الجزائر)

ملخص:

الاحتجاج للقراءات: هو حركة نقدية[1] وفن من فنون القراءات القرآنية ويقصد به: الكشف عن وجه القـراءة النحويـة و اللغوية، وصحة اختيارها، بالتعليل المستند إلى أصول معتمدة من القرآن و الشعر ولغات العرب وكلامهم. وقد ألف فريـق مـن النحاة على مر العصور كتبًا في الاحتجاج للقراءات وذلك بغرض تثبيت القراءة ، والرد على الطاعنين فيها بالتلحين أو التضعيف ، فتعددت مناهجهم في هذا العلم وبرعوا فيه.

و كُتُب الاحتجاج للقراءات تمزج مستويات الدرس اللُّغويِّ: الصوتي ، والصرفيّ ، والنحويّ والدّلاليّ. وتعدُّ من أرقى الدراسات التطبيقية في اللغة العربية.

Résumé:

Les argumentations des lectures: est un mouvement critique, et un art parmi les arts des lectures coraniques, qui vise à: détecter le visage de la lecture grammaticale et linguistique, et de la légalité de sa sélection, par l'explication basée sur le Coran, la poésie, et les langues arabes. Une équipe de grammairiens à travers les âges, ont écrit des livres sur les argumentations des lectures, dans le but de confirmer la lecture, et de répondre à des opposants par les fautes, ainsi ils ont varié leur cursus dans cette science, et ils sont excellé dans se domaine.

Les livres pour les argumentations des lectures, mélange les niveaux de la leçon linguistique: oral, morphologique, grammaticale, et syntaxique. se sont des livres qui compte parmi les plus prestigieux études appliquées en langue arabe.

تمهيد:

القرآن الكريم كتاب الله المعجز، المنزل على محمد ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليكون للناسِ بشيرا ونذيراً بلسان عربي مبين، قال الله تعالى: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** [2]

ووعد سبحانه وتعالى بحفظه من النّسيان والتّحريف و الفتن، قال الله تعالى : **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الـذِّكْرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَافِظُونَ}** [3]

وتحقّق هذا الوعد في ثلاثة مظاهر:

الأول:الحفظ : ويتمثَّلُ في حفظ النبي ﷺ وإقرائه الصحابة وعرضه الدّوري على جبريل ــ عليه السـلام ــ وحفـظ القرآن في القلوب والصدور[4] ، وقد أشار إلى ذلك ابن الجزري بقوله:"ثمَّ إنَّ الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتـب، وهـذه أشـرف خصيصـة مـن الله تعـالى علـى هـذه الأمـة" [5] لقوله تعالى: **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلّا الظّالِمُونَ}** [6]

الثاني:الكتابة: ويتمثل في كتّاب الوحي،كتبوا على قطع من العسب واللِّخاف والرّقاع.[7]

ومن هــؤلاء: الخلفاء الأربعة و زيد بن ثابت(ت45هــ)، وأبي بن كعب (ت20هــ) ومعاوية بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس –رضي الله عنهم–

توفي رسول الله ﷺ والقرآن كله محفوظ في صدور الصحابة مدون على ما تيسر الرقاع وغيــره وإن لــم يجمعه كتاب واحد،وحدثت عملية الجمع الأولى ثم عملية الجمع الثانية وكل عملية دعت إليها ظــروف معينـــة،ثم أودع القرآن مجموعا في صحف لدى أم المؤمنين حفصة بنت عمر–رضي الله عنها– وفي عهد الخليفة الثالث عثمـــان بـــن عفان –رضي الله عنها– وحّد قراءة المصحف في المصحف العثماني الذي هو بين أيدينا وصدق الله وعده.[8]

الثالث: حفظه من أيّ لحنٍ قد يأتيه من أولئك الذين اعتنقوا الإسلام من الأعاجم، أو ممَّن تـــأثرت لغــتهم لاحتكـــاكهم بالشّعوب الأخرى، فأصاب لسانهم لكنةٌ أبعدتهم عن الفصاحة، قيَض الله تعالى لذلك علماء اللغة والنّحـــو ليقوّمـــوا مـــا أصاب اللسان العربي. فالقرآن الكريم هو السبيل للبحث في لغة العرب نثرها وشعرها؛ لتكـــون معينـــة علـــى فهمـــه وتفسيره والاحتجاج لقراءاته.

و لقد حفظ القرآن الكريم اللغة العربية وطورها، فهو وسيلة الاحتجاج التي يعتمدها النّحاة في ضبط اللغـــة وتقعيـــدها، حيث أنّ الكثير من قرَّائه أسّسَ قواعد العربية على ما جاء في القرآن، ولا عجب في ذلك فجلّ القرّاء من النحاة.[9]

من البصريين:[10]

- عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هــ).
- وعيسى بن عمر الثقفي(ت149هــ).
- وأبو عمرو بن العلاء(ت145هــ).
- والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هــ).

من الكوفيين:

- علي بن حمزة الكسائي (ت189هــ).
- ويحيى بن زياد الفرّاء.(ت207).

كما بذل النحاة بدورهم جهودا معتبرة لخدمة القرآن الكريم بمختلف قراءاته المتواترة والشـــاذة، فـــاحتجّوا لهـــا ووجَّهوها بالتعليل المستند إلى الأصول المعتمدة عندهم، واستشهدوا على ذلك بالشواهد الفصيحة التـــي جمعوهـــا مـــن البوادي عبر رحلاتهم العلمية العديدة، وقد استندوا إلى هذه القراءات في تأصيل قواعدهم، وإرساء معـــالم الصـــناعة النحوية والصرفية، وضبط مفردات اللغة. معتمدين على شروط صحة القراءات المتواترة واستنبطوا منها الأصول التي بَنَوْا عليها علومهم واحتجّوا بها[11].

إنها المعجزة القرآنية لقوله تعالى: **{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا}** [12]

تعريف مصطلح الاحتجاج للقراءات وتوجيهها :

أولا مفهوم الاحتجاج:

الاحتجاج يراد به إثبات صحة القاعدة، أو استعمال كلمة أو تركيب ،بدليل نقلي صح سنده إلى عربي فصـــيح سليم السليقة[13].

والاحتجاج للقراءات: فن من فنون القراءات، بدأ قليلا في هيئة ملاحظات أولية تروى عـــن بعـــض الصـــحابة والتابعين والقرّاء، مفرقة لا تستوعب قراءة بعينها ولا عدداً من القراءات، وإنما ترد عنـــد الحاجـــة، ويقتصـــر علـــى المشابهات القريبة، التي تعقد بين القراءات،وكانت تعتمد على القياس وعلى حمل لفظ القَراءة على نظيره من القـــرآن الكريم أو حمل المعنى.[14] ثم أخذ يتجه مع ذلك إلى التخريج والاستشهاد.

ومن هذه المشابهات [15]: احتجاج ابن عباس – رضي الله عنهما– (ت68هـ) أنه كان يقرأ (نُنْشِـرُها) بـالراء المهملة وضم النون من قول الله تعالى: **{وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا }** [16]
ويحتج لقراءته بقول الله تعالى :**{ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ }**[17] **(نُنْشِزُهَا، ونُنْشِرُهَا)**
وهما:قراءتان متواترتان [18]:(نُنْشِزُهَا):قراءة :ابن عامر,عاصم,وحمزة...
أما: (نُنْشِرُهَا): قراءة:نافع، وابن كثير ، أبوعمرو...

أ–**الاحتجاج لغة:** الاحتجاج في اللغة، من باب "افتعال" مصدر "احتجّ"، وأصله من الحجّة بمعنى الدليل والبرهان [19] ومنه قوله تعالى:**{ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ }** [20] أي الاحتجاج ، إقامة الحجة.[21]

ومجرده حجّ من الحَجّ، وهو القصد، والجمع حُجَجٌ وحِجاج. "إنما سميت حُجّة، لأنها تُحجُّ، أي تُقصد؛ لأن القصد لها وإليها". واحتج بالشيء: اتخذه حجة[22]

فالاحتجاج على ذلك: هو تلمس الحجّة، ثم الإبانة عنها وإيضاحها.

ب–الاحتجاج اصطلاحاً:

هو فن يُعنى بالكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها، وبيانها والإيضاح عنها،ومن هنا جاء لفظ الاحتجاج، فقد انبرى العلماء المحتجون لتوضيح حججهم، ولعل الداعي إلى سلوك هذا النهج هو بيان وجه اختيار القارئ للقـراءة بهذا الوجه، والبرهنة على صحة القراءات الصحيحة، ردّاً على من يرتاب في صحتها، كما ساعد ذلك على بيان ثـراء معاني القرآن العظيم، وتنوع دلالاته الناجمة عن تنوع القراءات.[23]

يقول طاش كبرى زادة: [24] "

علم يبحث فيه عن لمية [25]القراءات ،ببيان عللها وتوجيهها من حيث اللغة والإعراب ".

لقد اتضحت معالم هذا العلم وأصبح فنا مستقلا يهدف إلى التوفيق بين القراءات والترجيح بينها والموافقة لشروط القراءة الصحيحة لتوثيق النص القرآني.

وقد يطلق عليه "**علم علل القراءات**" وهو علم يتعلق بدراية القراءات، بمعنى:أنه لماذا اختار القارئ قراءة معينة من بين القراءات التي صحت لديه وكان يتقنها.

ويقول الدكتور سعيد الأفغاني– الذي نجده استعمل **مصطلح** "**الحجة**": "وكلمة الحجة في هذا الفن لا يـراد بهـا الدليل، لأن دليل القراءة صحة إسنادها وتواترها، وإنما يراد بها وجه الاختيار.لما اختار القارئ لنفسه قراءته من بـين القراءات الصحيحة المتواترة التي أتقنها ويكون هذا الوجه تعليلا نحويـا حينا،ولغويـا حينا،ومعنويـا تـارة، ونقليـا تارة،يراعي أخبار وأحاديث استأنس بها في اختياره،فهي تعليل الاختيار لا دليل صحة القراءة فهي صحيحة في نفسـها لتواترها لا لعلل اختيار قراء لها".[26]

والاحتجاج النحوي واللغوي لتسييج النص القرآني إلى جانب سياج الرواية[27] والسـند ويشـمل الخلافـات، الأصولية والفرشية،وهو المقصود من الاحتجاج عند إطلاقه، وقد انصرفت جهود القراء والنحويين إليه:

– الاحتجاج للأصول[28]:

فإن الأصول الدائرة على اختلاف القراءات: سبعة وثلاثون أصلا. حسـبما تضـمنتها (الشـاطبية) و(الـدرة). وتفصيلها كالآتي: الإظهار، والإدغام، والإخفاء والإقلاب، والصلة، والمد والقصر، والتوسـط، والإبـداع، والتحقيـق، والتسهيل، والإبدال، والإسقاط، والنقل، والتخفيف، والحذف، والفتح، والتقليل، والإمالة، والترقيق، والتفخيم، والتغلـيظ، والاختلاس، والإخفاء، والتتميم، والإرسال، والتشديد، والتثقيل، والوقف، والسـكت، والقطـع، والإسـكان، والـروم،

والإشمام، وياءات الإضافة، وياءات الزوائد. وأغلب هذه الأصول يرجع الاختلاف فيه إلى وجوده في اللغة العربية وثبوته من حيث القراءة .

- **الاحتجاج للفرش :**

أي الكلمات القرآنية المنتشرة في السور التي ذكرت فيها أوجه متعددة ونسبت إلى القراء المشهورين.[29] مثل الاحتجاج لقوله تعالى: {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** }[30]

كلمة: ﴿مَالِكِ﴾ قرئت: بإثبات الألف بعد الميم. وهي قراءة: عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلف العاشر.

وبحذف الألف (مَلِكِ) وهي قراءة الباقين من العشرة، وهو أبو جعفر، ونافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبن عامر، وحمزة. [31]

الاحتجاج للقراءة الأولى:

كلمة "**مَالِكِ**" بالألف اسم فاعل من مَلَك يَمْلِكُ مُلْكًا (بكسر الميم)، أي: مالك مجيء يوم الدين، والمالك: هو المترف في الأعيان المملوكة كيف شاء، وقد أجمع القراء على إثبات الألف في قوله تعالى: {قُلِ اللهمَّ مالِكَ الْمُلْكِ} [32]

رغم كونها محذوفة الألف رسما .و"مالكِ" أمدح من "مَلِكِ" وأعم ، حيث تقول : "هو مالك الجن والإنس والطير والدواب ...، ولا تضيف "ملكا" إلى هذه الأصناف.كما أنّ زيادة المبنى- في "مالك"- تدل على زيادة المعنى.

- **الاحتجاج للقراءة الثانية:**

كلمة (**مَلِكِ**) على وزن فَقِه، صفة مشبعة، أي: قاضي يوم الدين ، و"الْمَلِك" : هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من (الْمُلْك) بضم الميم .

و(مَلِكِ) أبلغ من (مالِكِ) لأن كل ملك: مالك، وليس العكس.

كما أن القراء أجمعوا على حذف الألف منه في مواضع، نحو:

(الملك القدوس الملك الحق) (ملك الناس) [33]

ومن القراءات الشاذة:قراءة أبي هريرة ﴿مَالِكَ﴾:بنصبها على الدعاء[34] .

والاحتجاج للقراءات يشمل القراءات: المتواترة والشاذة. ويعرف أيضا بـ"**التوجيه**":

ثانيا: مفهوم التوجيه:

أ-التوجيه لغة :هو مصدر للفعل وجَّه، وأصله من الوجه. قال تعالى: {**أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ** } [35]

الوجه : مستقبل لكل شيء...ووجهت الشيء جعلته على جهة"[36]

ويقال في المثل: وَجِّهِ الحَجَرَ وِجهَةً ماله. أي: ضعه على وجهه اللائق به، ويُضرب لمن لا يدبر الأمر على وجهه الذي ينبغي أن يوجه عليه.جاء في لسان العرب: وجه: الوَجْهُ: معروف، والجمع الوُجُوه.

وفي حديث أَبي الدَّرْداءِ:" لا تَفْقَهُ حتى تَرَى للقرآن وُجوها أَي تَرَى له مَعَانيَ يحتملها فتَهابَ الإقْدامَ عليه "[37] .

ب-أما التوجيه اصطلاحاً:

فهو عند علماء القراءات " هو الاحتجاج للقراءات وتوثيقها والتماس الدليل لقراءة كل قارئ من القراء،وذلك إما بالاستناد إلى قاعدة مشهورة في العربية،أو بالتماس علة خفيّة بعيدة الإدراك يحاول اقتناصها،أو توليدها،أو بالاعتماد على القياس وحشد النظائر ومقارنة المثيل ".[38]

فالزركشي (ت794هـ) يجعل النوع الثالث والعشرين من علوم القرآن في (معرفة توجيه القراءات، وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ) ويرى أنه "فن جليل" وبه تعرف جلالة

المعاني وجزالتها، وقد اعتنى به الأئمة وأفردوا فيه كتباً... "[39]

بناءً على ما سبق يتبين أن مفهوم "الاحتجاج للقراءات "و"توجيه القراءات"؛ يدور حول بيان الوجه المقصود من القراءة أو الأوجه المحتملة التي يجرى عليها التغاير القرآني في مواضعه، سواء كانت هذه الوجوه نقلية أم عقلية.

غير أن بعض العلماء قد آثروا استعمال مصطلح الاحتجاج كما استعمله "المبرد" في كتابه:"احتجاج القراءات".

فلمصطلح الاحتجاج للقراءات (التوجيه) – كما قال الدكتور عبد العلي المسئول [40]– مرادفات ذكرها أئمة العربية ممن راموا تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها.

ونخلص: أن الاحتجاج للقراءات وتوجيهها: هو علم يقصد منه تبيين وجوه وعلل القراءات والإيضاح منها والانتصار لها.

من مرادفات مصطلح الاحتجاج للقراءات:

- **التعليل** : ومنه كتاب "التعليل في القراءات السبع" لأبي العبّاس النحوي. و"علل القراءات" لأبي منصور الأزهري.
- **الحجة** :"الحجة للقراء السبعة"لأبي علي الفارسي و"حجة القراءات" لأبي زرعة.
- **الانتصار** :"الانتصار لحمزة" لأبي طاهر عبد الواحد البزار.
- **التخريج** : وهو مصطلح درج عليه ابن هشام في مصنفاته.والسيوطي في مؤلفاته.
- **الإيضاح** : ومنه كتاب "المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها"

ويلحق به **الموضح** : من التوضيح أي التبيين ككتاب " الموضح في وجوه القراءات " [41]

الاحتجاج للقراءات والاحتجاج بالقراءات:

- **فأما الاحتجاج للقراءات:**

فهو فن من فنون القراءات ويقصد به: الكشف عن وجه القراءة في نحوها أو صرفها أو لغتها، وتسويغ الاختيار، وذلك بأساليب اللغة الأخرى من قرآن وشعر ولغات، ولا يراد به توثيق القراءة أو إثبات صحة قاعدة نحوية فيها.

وذلك لأن التوثيق وإثبات صحة القواعد إنما هو مقرر في علم النحو ومن أصوله.[42] فالغاية من الاحتجاج للقراءة إنما هو للكشف عن الوجوه النحوية، وتبيين مراتبها لا الاحتجاج بمعنى الإثبات كما خيل لبعضهم وقد ألف العلماء على مر العصور كتبًا في الاحتجاج للقراءات متواترها وشاذها، يوضحون عللها ويسفرون عنها، فكانت تعد بحق من الكتب القيمة في تراثنا، لبروز مكانتها التي لا تجحد من الناحيتين اللغوية والنحوية ثـمّ إنّ كتب توجيه القراءات تمزج مستويات الدرس اللُّغويّ الأربعة ببعض: الصوتي ، والصرفيّ ، والنحويّ والدّلاليّ.وتعدُّ من أرقى الدراسات التطبيقية في اللغة العربية،وهي تمثّل اللحمة القويّة بين علومها .

لقد لجأ علماء التوجيه إلى توجيه القراءات لتجنب الطعن والبحث لهذه القراءة عن تخريج مناسب ، فهذا أبو جعفر النحاس[43] يقول: "والديانة تحظر الطعن على القراءة التي قرأ بها الجماعة، ولا يجوز أن تكون مأخوذة إلا عن النبي ﷺ.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ : **(إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ).**[44]

وأما الاحتجاج بالقراءات:

يراد بالاحتجاج هنا الشواهد التي يستعين بها النحاة على إثبات صحة الآراء والقواعد، وتأكيد بعض الوجـوه أو رفضها. فهي متفاوتة من حيث القوة والضعف بحسب موافقتها للشروط والضوابط التي حددّها النحاة. وقد اختلف النحاة في الاحتجاج ببعض القراءات القرآنية بين متشدّد ومتساهل.

فالصلة وثيقة بين الخلاف في مصادر الاحتجاج، و مسائل الأصول النحوية المعتمدة لديهم من حيث اعتمـادهم على السماع والقياس، وما نتج عن اختلاف مواقفهم من بعض القراءات.

لقد اعتمد قدامى النحاة على مصادر واحدة وهي: القرآن الكريم، والحديث النبوي، وكلام العرب– نظمه ونثره– في الاستدلال النحوي، فاستنبطوا منها جُلّ شواهدهم في تحديد الأصول والقواعد النحوية الكلية حيناً، كما استدلوا ببعض الشواهد لما خرج عن هذه الأصول والقواعد حيناً آخر وذلك في حالات خاصة كالحذف أو موافقة بعض اللهجات[45]

ورغم أن القرآن الكريم هو الأصل الأول من أصول الاستشهاد فإن الشعر كان أوفر حظاً من النثر عند النحاة، ولعلّ سبب اهتمامهم بالشعر وإقبالهم عليه استشهادا واحتجاجا به يعود إلى المنزلة العظيمة التي كان يتمتع بها الشـعر في نفوس العرب الأولين، فهو ديوانهم، وسجل حياتهم؛ وحين جاء الإسلام لم تهتز منزلة الشعر في نفوس العرب، وأما قلة اعتمادهم على الحديث فلم تكن متعمدة، إذْ شغلهم عنه وفرة الأشعار، والإقبال على الشواهد القرآنية.

نشأة الاحتجاج للقراءات وتطوره:

إن الاحتجاج للقراءات نشأ مبكرا ويرجع ذلك إلى عصر الصحابة الذين تعرفوا على القراءات المختلفة والوجوه المتعددة ،ومما يدل على ذلك قصة حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه مع نافع بن الأزرق[46] ،

التي أوردها السيوطي[47] وغيره للدلالة على الاحتجاج بالشعر للقراءات، وأريد أن أسوق هنا بعضا منها: فقـد روى أبو عُبيدةَ بإسنادٍ له عن عكرمة [48] قال : رأيْتُ ابْنَ عبّاسٍ وعنده نافعٍ ابن الأزرق وهو يسأله ، ويطلـب منـه الاحتجاجَ باللُّغة ، فسأله عن قول الله تعالى: {**واللَّيلِ ومَا وَسَقَ** } [49] فقال : وما جمع ، ألم تسمع : مستوثقات لو يَجِدْن سائقاً .

قال: وسأله عن قوله تعالى : {**قَدْ جَعَلَ رَبّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً**} [50] – قال: جدول .

–فسأله عن الشاهد . – فأنشده :

سلماً ترى الدّالج منه أُزْوَرا ۞ إذا يَمُجُّ في السَّرِيِّ هَرْهرا

وسأله عن قوله تعالى : {**عُتُلّ بَعْدَ ذَلكَ زَنِيمٍ**} [51]

–قال : هو الدَّعِيُّ المُلْصَقُ ، أَما سمعْتَ قولَ حَسَّان :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً ۞ كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الأَدِيمِ الأَكَارِعُ

وروي أن عائشة– رضي الله عنها– قالت في قوله تعالى:{ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيّونَ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْـتَطِيعُ رَبّـكَ أَن يُنَزّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مّنَ السّمَآءِ قَالَ اتّقُواْ اللّهَ إِن كُنْتُم مّؤْمِنِينَ**} [52].

كان الحواريّون أعلم بالله من أن يقولوا: هل يستطيع ربُّك، إنما قالوا: هل تستطيع أنت ربّك؟

هل تستطيع أن تدعوه؟[53]

وكان أبو عمرو بن العلاء (ت154هــ) يقرأ الفعل بفتح الياء وضم الدال (يَصْدُرَ) من قول الله تعالى{ **قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ** } [54] ويحتج لاختياره بأنّ: "المراد من ذلك حتى ينصرف الرعاء عـن المـاء، ولـو كـان (يُصْدر) كان الوجه أن يذكر المفعول فيقول: (حتى يصدر الرعاء ماشيتهم) فلما لم يذكر مع الفعل المفعول علـم أنـه غير واقع، وأنه (يَصْدُرَ الرّعاء) أي ينصرفون عن الماء [55]. وهما قراءتان متواتران

وفي كتب اللغة والأصول وعلوم القرآن والتفسير ومعاني القرآن كثير من توجيه القراءات والاحتجاج لها، يحتج بها اللغويون للاستشهاد على بعض قواعدهم، أو إلى ترجيح وجه لغوي على آخر، ويستعين بها الفقهاء في استنباط الأحكام، ويستدل بها المفسرون على بيان المعاني التي تتضمنها الآيات القرآنية. ومن الأوائل الذين تتبعوا القراءات توجيهاً وبياناً الإمام ابن جرير الطبري (ت310هـ) وذلك من خلال تفسيره "جامع البيان"

حيث اعتنى- رحمه الله- بذكر وجوه القراءات المختلفة، وبيان حجتها من حيث اللغة والاستشهاد لها بما يحضره من شواهد الشعر والنثر.

وبعد الطبري يأتي ابن مجاهد (ت324هـ) فيختار سبع قراءات لسبعة من مشاهير قراء الأمصار، ويُضمها كتابه (السبعة في القراءات)، ويذكر أن له كتاباً آخر في الشواذ من القراء،[56] وأيّاً ما كان موقف العلماء من تسبيعه السبعة، فقد فتحت الباب لدراسات مستقلة في توجيه القراءات والاحتجاج لها، وتلقّت الأُمَّةُ تسبيعه بالقبولِ ، وظهر منذ ذلك الزّمن توجيهاتٌ واحتجاجاتٌ للقراءات سواءٌ كانت سبعيَّةً أو غيرها[57].

وقد كان الاحتجاجُ للقراءاتِ وسيلة لخدمة اللُّغة العربيّة ، وتقوية بعض وجوهِها، و عرف النحويُّون هذا الاحتجاج منذ بداية التأليف في علوم العربية ، نجد ذلك في كتاب سيبويه (ت180هـ)، ومن تبعه من النحاة ينظِّرون للقراءة بكلامِ العرب شعره ونثره .

ثالثا: المراحل التي مرّ بها الاحتجاج للقراءات:

مرّ الاحتجاج للقراءات بثلاث المراحل:

1)- **المرحلة الأولى** : الاحتجاجات الفردية لبعض القراءات ،كما روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وعن بعض الأئمة القراء ، أمثال : عاصم الجحدري البصري (ت128هـ)كان يروي حروفا عن النبي ﷺ وأبي بكر الصديق-رضي الله عنه- قراءة ويلتزم المصحف العثماني كتابة، منها (الصابئين) بدل ﴿الصابئون﴾[58]وعيسى بن عمرو(ت149هـ) والكسائي(ت189هـ)كان يوجه القراءة النادرة وفق مذهبه النحوي[59] .

ويندرج ضمنه احتجاج سيبويه لبعض ما أورده في كتابه من قراءات، حيث لا يُعتبركتاب سيبويه تأليفا في الاحتجاج.[60]

2)- **المرحلة الثانية:** تأليف كتب الاحتجاج ، دون تمييز بين القراءات المتواترة والشاذة من بداية عمل هارون بن موسى الأعور(ت200هـ) إلى عصر مسبّع السبعة : ابن مجاهد ، حيث اتضحت معالم القراءات المتواترة وباتت مميزة من الشاذة .

3- **المرحلة الثالثة** : الاحتجاج للقراءات المتواترة ، بدءا بالقراءات السبع التي اختارها الإمام ابن مجاهد(ت324هـ) وما بعده من المؤلفات في الاحتجاج لها مثل كتاب:"الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها" لمكي بن أبي طالب (ت 437هـ)[61] إلى الاحتجاج للقراءات العشر ومن المعاصرين :المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة لمحمد سالم محيسن. كما تم التأليف في الاحتجاج للشواذ: مثل كتاب " المحتسب" لابن جني.

ومن المعاصرين كتاب"القراءات الشاذة وتوجيهها " لعبد الفتاح القاضي (ت 1403هـ) والجمع بين العشر المتواترة والأربع الشواذ:مثل" إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر" للدمياطي البنا (ت 1117هـ)

رابعا التدوين في الاحتجاج والتأليف فيه:

وكان علم التوجيه في بدايته منثورا في بطون كتب متعددة، مثل كتاب سيبويه،ومعاني القرآن للفراء،ومعاني القرآن للزجاج وغيرها.ثم ظهر التأليف مستقلا.بدأ التدوين في الاحتجاج في القرن الثاني الهجري، وممن ألف في القرن

هارون بن موسى الأعور، الذي ألف في وجوه القراءات وتتبع الشاذ منها،فبحث عم الإسناد،وهو ضرب من الاحتجاج.[62]

ومن هذه المؤلفات[63]

1- كتاب وجوه القراءات لهارون بن موسى الأعور(ت200هـ)
2- الجامع ليعقوب بن اسحاق الحضرمي(ت205هـ)
3- القراءات لأبي عبيد القاسم بن سلام(ت224هـ)
4- وجوه القراءات لابن قتيبة(ت377هـ)
5- احتجاج القراء للمبرد(ت285هـ)
6- معاني القراءات لأبي منصور الزهري(ت370هـ)
7- الحجة للقراء السبعة،لأبي علي الفارسي(ت377هـ)
8- احتجاج القراءة ،أبو بكر بن السرّاج (ت 316 هـ)
9- إعراب القراءات السبع وعللها لابن خلويه(ت370هـ)
10- الحجة في القراءات السبع ،لابن خلويه (ت370هـ)
11- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني(ت394هـ)
12- حجة القراءات لابن زنجلة(توفي في القرن الرابع)
13- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها ،لمكي بن أبي طالب(ت 437هـ)
14- شرح الهداية،لأبي العباس المهدوي(ت430هـ)
15- الموضح في وجوه القراءات وعللها.لابن أبي مريم(ت565هـ)
16- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، للبنا الدمياطي(ت1117هـ)

بهذا التأليف صار علم التوجيه ينتقل من مرحلة الملاحظات الأولية أو المتفرقة إلى مرحلة الاستقلال والنضج؛ فاتضحت بذلك معالمه وترسخت أصوله.ولا يزال الباحثون إلى يومنا هذا يتناولون توجيه القراءات بالدراسة والبحث.

دوافع الاحتجاج للقراءات القرآنية

تمهيد : دوافع الاحتجاج للقراءات.

كنا رأينا أن من حفظ الله تعالى لكتابه، أن قيض له من يجتهد لحمايته من اللحن وشرور الفتنة، يقول حسان تمام:"من هنا كان الخوف على القرآن حينا من عوادي الفتنة وحينا من مخاطر اللحن هو الدافع للسلف الصالح من المسلمين إلى اتخاذ خطوات مخلصة تقية سعوا بها إلى المحافظة على النص القرآني"[64] .

إن دوافع الاحتجاج للقراءات من خلال كتب التوجيه ومقدمات هذه الكتب فهي كثيرة ومتنوعة، فمنها ما كان تصديا للمشككين في القراءات من زنادقة القرن الثالث وما بعده ومنه ما كان ردا على النحويين الذين طعنوا في القراءة التي خالفت القياس والنظر عندهم.ومنه ما كان توضيحا للأركان الثلاثة التي وضعها العلماء لصحة القراءة، ومنه بيان لمعنى الآية التي قرئت بأكثر من وجه، ومنه تأييد النحوي واللغوي لقواعده ومذهبه بقراءة ويحتج لها وبها[65]

وغيرها من الأسباب التي دفعت النحويين واللغويين إلى التأليف في مختلف المجالات التي تعنى بالقراءات القرآنية سواء المتواتر منها أو الشاذ، وقد تتفاوت هذه الأسباب من عصر إلى آخر حسب الفكر الرائج حينها،بين التنافس أو الردود وكلها تصب في خدمة القرآن الكريم.

ولعل من أهم دوافع الاحتجاج للقراءات هو الدفاع عنها بالكشف عن وجهها، وبيان صحتها ورد على الشبهات التي يثيرها الطاعنون [66]

والنتيجة: أن علم الاحتجاج للقراءات وتوجيهها علم واسع، خصب للبحث والتنقيب، وتبين لي منه:

أ - أنه بقدر ما كان هناك مَن يرُدّ قراءة من القراءات لأنها تخالف القواعد التي تمسّك بها، فهناك فريق من العلماء انتصر للقراءة منطلقا من أنها من القرآن الكريم لا يجوز الطعن فيها،ويجب الانتصار لها والبحث عن الوجه الملائم لتخريجها.

ب- أنّ القراءات القرآنية سنة متبعة، وهي أقوى حجة من الشعر وأكثر دقة وأشد ضبطا وإتقانا، مادام سندها الرواية الصحيحة، و بهذا تكون هي الأحق أن تشتق منها المقاييس وتستمد منها الأصول، لا أن تكون خاضعة للمقاييس الموضوعة.

ج- كان الاستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته المختلفة محل إجماع، وهو ما ظهر جليّا في كتاب سيبويه لأن في زمانه لم تكن القراءات قد ميزت ونسبت إلى القراء. [67] فقد ضمَّن كتابه سبعةً وخمسين ومائة شاهدٍ من شواهد القرآن الكريم، وهي تصل إلى أكثر من 60% من مجموع شواهده التي بلغت ستَّةً وتسعين وثلاثمائة شاهدٍ، وهذه النّسبة المرتفعة من شواهد القرآن التي اعتمد عليها سيبويه تدلّ على مدى اهتمامه بالقرآن الكريم لتكون آياته حجّة لعلماء اللغة والنّحو.

فالنحويّ لا غنى له عن القرآن الكريم وقراءاته إذ هو مادة استشهاده للقواعد النحوية.

وقد أجمع النحاة على أنّ القرآن الكريم – بكل قراءاته المتواترة والشاذة– أصحّ كلامٍ عربي يُحتج به[68]. فنصّ سيبويه على "أنّ القراءة لا تخالف، لأن القراءة السنّة".

وقال الفرّاء مبيناً أهمية القرآن الكريم في الاحتجاج: "والكتاب أعربُ وأقوى في الحجة من الشعر"

وقال ابن خالويه: "قد أجمع الناس أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن، لا خلاف في ذلك "

د- إذا كان النحاة البصريون يرفضون كثيرا من القراءات، في مجال نحوهم،فإن منهم من يقبل القراءات ويستدل بها، وإذا كان الغالب على نحاة الكوفة الاعتماد على القراءات، فإن منهم من يعارضها،فقدكان سيبويه (البصري)يرى أن القراءة سنة متبعة،بينما كان الفراء(الكوفي) يرفض بعض القراءات.وإذا كان المازني(البصري) يخطئ بعض القرّاء.فإن الكسائي(الكوفي) يؤيد قراءة أخرى،ويبني عليها قواعده. وهكذا كما رأينا آنفا لم يتفق النحاة جميعهم على ردّ بعض القراءات والطعن فيها.

هـ- أنّ هناك تلازماً بين النّحو والقرآن الكريم وقراءاته،فالقرآن الكريم هذّب اللسان العربي من وحشي الكلام وغريبه. وخلّص اللغة العربية من شتات اللّهجات، وجعلها لغة عالميّة تنطق بها الأمم.ويعود للقرآن الفضل في تقعيد اللغة ضبطها.

و- أنّ القراءات القرآنية بأنواعها والتي ردّها بعض النّحاة، كانت مادة من مواد الدّرس النّحوي، لما أحدثته من تفاعل بَنّاء بين النّحاة، فأثْرت لغة القرآن وحمتها من كلّ لحنٍ أو تشكيك قد يقع فيه من يجهل القراءات القرآنية.

ز- ما كان اختلاف القراءات القرآنية اختلاف تناقض وتضاد، وإنما هو اختلاف تيسير وتخفيف على هذه الأمة، بل هو كمال الإعجاز وغاية الإيجاز، مصداقا لقوله تعالى :**{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }** [69]

خلاصة القول: الإنصاف يقتضي أن نعذر نحاتنا الأوائل فيما انتهجوه من الاقتصار على اللغــة الأدبيــة، و ذلــك أنّ المنهج يرتبط بالغاية من الاحتجاج النحوي، و هو خدمة القرآن الكريم ، الذي نزل بلغة أدبية رفيعة المستوى ، فلا سبيل إلى فهمه و تحليل أساليبه إلا في ضوء الأساليب الأدبية العالية عند العرب ، و هذا ما دعاهم إلى الاعتمــاد على لغة الشعر،كونها أرقى مستويات الأدب ، واتخاذها مصدراً لقواعدهم و أحكامهم وقد عبّر عن ذلــك تمــام حسان عندما تساءل أسئلة إنكارية.

" فماذا عسانا أن يكون موقفنا من النحاة في ضوء هذه الملابسات ؟ أنلومهم لأنهم خالفوا مقاييس و طرقاً منهجية لم يكن لها وجود في زمانهم ، أم نرى ما رأوه ضرورة الأخذ بهذه اللغة الأدبية ؟[70] "

إن النحاة لم يتصدوا لمهمة إنشاء النحو إلا لخدمة القرآن الكريم من أن تتسرب إليه ظاهرة اللحن، و القرآن نص أُنزل باللغة الأدبية، و ليس بلغة التخاطب العادية، فكان على من يودّ المحافظة على القرآن الكريم، أن يدرس اللغة التي أنزل بها. لهذا لم يكن بوسع النحاة أن ينتهجوا غير هذا المنهج ليحققوا الغاية من النحو، غير أن الشدة والتعسف حينــا والتطاول على القراء حينا آخر شوش على هذا المنهج النحوي.

الهوامش ومراجع

- ❖ القرآن الكريم:رواية حفص عن عاصم

1) ينظر: عتيق عبد العزيزـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ط3 ـ 1974م ـ ص:180،57،55...(النحاة والنقد)

2) سورة يوسف–الآية:2

3) سورة الحجر، الآية:9

4) السيوطي – الإتقان في علوم القرآن–ج1–ص148. وينظر : الزركشي –البرهان في علوم القرآن– ج1–ص:237.

5) ابن الجزري –النشر في القراءات العشر– ج1 / ص6.

6) سورة العنكبوت – الآية:49

7) العسب: جمع عسيب، وهو جريدة النخل. اللخاف: حجارة بيض رقاق، واحدتها لخفة. والرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من ورق أو جلد. ينظر:لسان العرب ، والقاموس المحيط مواد: (عسب، لخف، رقع).

8) ينظر: صبحي الصالح – مباحث في علوم القرآن– دار العلم للملايين– ط22–1419 هـ 1999 م –ص:85

9) سعيد الأفغاني – في أصول النحو– بيروت – المكتب الإسلامي– طبعة: 1407هـ – 1987م– ص 6

10) أحمد أمين،- ضحى الإسلام– القاهرة– مصر–مكتبة النهضة المصرية– د.ت– ط8 – ج2/ص284.

11) شوقي ضيف–المدارس النحوية– دار المعارف – القاهرة – مصر– ط7:د.ت– ص:12

12) سورة النساء–الآية:82

13) رفيدة ابراهيم عبد الله – النحو وكتب التفسير– طرابلس، الجماهيرية– المنشأة العامة– ط:2 – السنة: 1394 هـ – 1998 م– ج1– ص:493.

14) الصغير محمود أحمد –القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي – بيروت– دار الفكر – الطبعة:1– 1419 هـ –1999 م. ص205. وينظر:مقدمة المحتسب للمحققين ج1–ص8

15) ينظر: أبو حيان– البحر المحيط – ج2– ص293

16) سورة البقرة–الآية 259

17) سورة عبس – الآية:22

18) فهد خاروف محمد– الميسر في القراءات الأربع عشرة– بيروت – دار الكلم الطيب– ط4: 1428–2006م–ص43. وينظر:عبد العال مكرم، وأحمد مختار – معجم القراءات القرآنية– ج1– ص200.

19) ابن منظور، لسان العرب، مادة "حج": ج2، ص226، وما بعدها
20) سورة البقرة – الآية 150
21) أبو حيان /البحر المحيط : ج2/ص41
22) المصدر السابق- مادة حج في: ج2، ص226، وما بعدها، وينظر ابن فارس– معجم مقاييس اللغة– ج2، ص29، وما بعدها،
23)المسؤول عبد العلي – القراءات الشاذة ضوابطها –الرياض دار ابن الأرقم– ط1429:1–2008– ص:251.
وينظر : الأفغاني– في أصول النحو– ص:6
24) طاش كبري زادة– مفتاح السعادة ومصباح السيادة–بيروت–دار الكتب العلمية–ط1–1405هـ ج2– ص:330
25)مصطلح منطقي مأخوذ من البرهان"اللمي"وهو أن يستدل من العلة على المعلول.
26) الأفغاني سعيد – في أصول النحو– ص6
27) ينظر:رفيدة ابراهيم عبد الله – النحو وكتب التفسير–
28)– منصور كافي– علم القراءات مفهومه...– الجزائر دار العلوم للنشر والتوزيع – د.ت– ص101
29) – ينظر : الخطيب – معجم القراءات –دمشق– دار سعد الدين للطباعة–ط1422:1–2002–ج1 – ص:9
30) سورة الفاتحة – الآية :4
31) مكرم سالم ومختار عمر – معجم القراءات القرآنية – ج1 – ص:7.
32) سورة آل عمران – الآية:26
33) {الملك القدوس} : الحشر/23 – ﴿الملك الحق﴾ :طه/ 114– ﴿ ملك الناس﴾:الناس/2
34) الأخفش– معاني القرآن– ص:15
35) سورة النحل– الآية 76
36) ابن فارس– معجم مقاييس اللغة– ج6 – ص:88.
37) ابن منظور– لسان العرب– ج2 – ص: 226
38)أحمد سعد محمد– التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية– القاهرة– مكتبة الآداب– ط1418:1هـ–1998م ص:24
39) الزركشي– البرهان في علوم القرآن – ج1– ص:5.و ص:238–ت حقيق:أبو الفضل إبراهيم–ط 2005م
40)المسؤول عبد العلي – القراءات الشاذة– ص:251.
41) لابن أبي مريم. و ينظر: منصور كافي – علم القراءات...– ص:95
42) الأفغاني سعيد– في أصول النحو– ص:6
43) النحاس –إعراب القرآن– ج3–ص:707
44) ابن حجر العسقلاني – فتح الباري، شرح صحيح البخاري– ضبط : محب الدين الخطيب و محمد فؤاد – دار الديان للتراث– ط1– 1407 هـ 1986م– ج9– ص:22.
45) ينظر شعبان صلاح – مواقف النحاة من القراءات القرآنية – القاهرة–دار غريب للطباعة– ط1 –2005 ص: 78
46)– نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي الحروري،رأس الأزارقة الخوارج، وإليه نسبهم. توفي سنة65هـ و ينظر – الذهبي – لسان الميزان – ج6،ص144.
47)– ينظر القصة بتمامها :في الإتقان:للسيوطي ج2–ص : 55 وما بعدها
48)– عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ – التفسير البياني للقرآن– مصر–دار المعارف–ط2–1966– ص:267
49) سورة الانشقاق–الآية17
50) سورة: مريم– الآية:24
51) سورة القلم، الآية: 13
52) سورة المائدة – الآية:112

52)–أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ج 219/11، . وينظر:السيوطي– الدر المنثور في التفسير بالمأثور– دار الفكر– ط1–

1414هـ–1939م– ج3– ص231

54) سورة:القصص– الآية:23

55) ابن زنجلة– حجة القراءات– تحقيق : سعيد الأفغاني–مؤسسة الرسالة – الطبعة الرابعة : 1404 هـ 1984م.ص543

56) – ابن جنى– المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها– تحقيق: علي النجدي وزملائه، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1415هـ –1994م، ج1، ص35.

57) – شلبي عبد الفتاح– أبو بكر بن مجاهد ومكانته في الدراسات القرآنية واللغوية–مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، العدد الخامس، 1401هـ ص66 وما بعدها.

58)سورة المائدة–الآية:69 – و ينظر: ابن قتيبة–تأويل مشكل القرآن– ص:38

59) الصغير محمود أحمد – القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي– ص:123

60) شلبي عبد الفتاح –المدخل التمهيدي في علم القراءات والتجويد– القاهرة–مكتبة وهبة ط 2– 1419 هـ ص109

61)– ينظر: ابن النديم–فهرست– الطبعة 1 – بيروت – دار الكتب العلمية– 1416 هـ – 1996 م.ص:6

و ينظر: عبد العال سالم مكرم– القراءات القرآنية واثرها– القاهرة– دار المعارف– د.ت– ص:76

62) شلبي عبد الفتاح إسماعيل–أبوعلي الفارسي–القاهرة– مطبعة نهضة مصر بالفجالة– ط1956

63) ينظر: منصور كافي – علم القراءات.. ص109. ص95

64)ينظر: تمام حسان – الأصول– القاهرة – مصر– الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982م ص23.

65) المرجع نفسه والصفحة.

66) مكي بن أبي طالب القيسي – الكشف عن وجوه القراءات السبع– تحقيق محي الدين رمضان–بيروت مؤسسة الرسالة– ط2 –

1401 هـ–1981م– ج1– ص: 375

67) رفيدة إبراهيم – النحو وكتب التفسير– ج2– ص1073

68) ينظر صلاح شعبان – موقف النحاة من القراءات القرآنية.–القاهرة –دار غريب–ط1–2004– ص74 وما بعدها.

69) سورة النساء:الآية: 82

70) تمام حسن – الأصول – القاهرة – مصر– الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1982م – ص:103.